النهيُ المحوَّل وأسرارُه في القرآن الكريم

أ.د/عرفات محمد عثمان

أستاذ ورئيس قسم علوم القرآن
في كلية القرآن الكريم جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد...

فهذا بحث موجز في أسلوب قرآني يضفي على النهي ظلالا من المعاني التي تقويه فيصير أبلغ في النهي وأوفى في تأدية المراد، وأقوى مدى في التنبيه على المقصود، وقد عرفه العرب الأقدمون وورد في أشعارهم وكلامهم المنثور، وكما ورد في آيات القرآن الكريم فإنه ورد كذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، وقد مثلوا له بقولهم: لا أرينك هاهنا ونحوه، فالناهي يتوجه بالنهي لنفسه ويريد بذلك المخاطب، وهو أبلغ في دلالته على النهي؛ لأنه يقطع أصل المنهي عنه بالكلية، ويجمع فيه بين نهي المتكلم ونهي الغائب إلى غير ذلك مما سيأتي في ثنايا البحث.

وقد أسميت بحثي: النهي المحوَّل وأسراره في القرآن الكريم. وقسمته ثلاثة مباحث: أولها في مفهوم المصطلح وتطوره، وثانيها في أقسامه وأسراره البلاغية وثالثها: في أمثلته القرآنية.

والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعل الإخلاص رائدنا في كل ما نقول أو نكتب، ومنه وحده التوفيق والعون، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: المفهوم وتطور المصطلح تمهيد وتعريف.

معلوم أن النهي لون من ألوان الإنشاء المتعددة، والنّهْي مصدر للفعل نهى، ومعناه : الزجر عن الشيء[١].

ولا يختلف معنى النهي في الاصطلاح عن معناه اللغوي، فهو طلب الكف على جهة الاستعلاء.

وللنهي حرف واحد، وهو لا الناهية الجازمة التي تدخل على الفعل المضارع، وأمثلته في القرآن كثير، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[الإسراء : ٢٩] .

ومعلومٌ أن لا الناهية تدخل على المخاطب وفعل الغائب، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود: ٤٢]، ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[النور : ٣١]، والأول أكثر في القرآن، وقد ورد في القرآن نهي المتكلم في قوله : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾[المائدة : ١٠٦] بجزم الميم وهى قراءة شاذة قرأ بها الحسن والشعبي[٢].

ومن أوجه تصريف القول في القرآن الكريم أسلوب النهي المحول، وقد ذكرت معنى النهي .

أما لفظ المحول فهو اسم مفعول من حوَّل يحوِّل، وأصل الحول تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وتحول عن الشيء : زال عنه إلى غيره، والتحول : التنقل من موضع إلى موضع[٣].

والمركب الإضافي : النهي المحول يمكننا تعريفه فنقول : هو النهي الذي تتغير فيه الصيغة من المتكلم إلى المخاطب ومن المخاطب إلى الغائب لسرٍّ بلاغي.

---

[١] انظر : المفردات للراغب ص ٨٢٦ مادة نهى ، ولسان العرب مادة نهى ١٥ / ٣٤٤.

[٢] البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٢٩٦ .

[٣] ولسان العرب مادة حول ١١ / ١٨٧ وما بعدها .

نظرة تاريخية

من المعلوم أن النهي يتوجه إلى مخاطب أو غائب، فإذا توجهت صيغة النهي إلى المرء نفسه فإنه يُعد لونا لطيفا فيه توسع وتحول في صيغة الخطاب، وقد عرفته العرب في كلامها وورد في أشعارهم، ومن أمثلته قول النابغة (ت : ١٨ ق.هـ = ٦٠٤م) :

لا أعرفن ربربا حورا مدامعها كأن أبكارها نعاج دوار[١]

.

فالنابغة ينهى نفسه عن معرفة النساء مسبيات، والمعنى : لا تقيموا بهذا المكان فأعرف نساءكم مسبيات .

قال خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ) : " ف (لا) ناهية، و(أعرف) مجزوم بها ومؤكد بالنون الخفيفة، مسند إلى ضمير المتكلم، وهذا النوع مما أقيم فيها المسبب مقام السبب، أي : لا يكن ربربٌ فأعرفه"[٢].

ومنه قول امريء القيس (ت ٥٤٥م) :

فقلت له صَوِّب ولا تَجْهَدَنهُ فيدنك من أخرى القطاة فتزلق[٣]

نهى الشاعر راكبَ الفرس أن يجُهده في العدْو فيُدْنه منه مؤخرته فيزلق، والإدناء فعل الفرس، لكنه نهىَ الفارس عنه وعطف على فعله ما لا يدخل في النهي، فهو في صورته

نهيٌ للفرس وفى حقيقته نهيٌ للغلام الفارس .

ومن النهي الذي يتحول إلى صورة مخاطبة المرء نفسه فينهاها ما قاله الأعشى (ت ٧هـ = ٦٢٩م) :

---

(١)ديوان النابغة ص ٧٥ ، والربرب : قطيع البقر شبه نساءهم بها ،ومدامعها : عيونها ، والحور : شدة سواد الحدقة ، والنعاح : إناث بقر الوحش ، وأبكار : صغار ، ودوار : نسك جاهلي يُدار.

(٢)شرح التصريح على التوضيح للأزهري ٢/ ٣٩٣ .

(٣)ديوان امريء القيس ص ١٣١ ،ونسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ١٠١) لعمرو بن عمار الطائي .

لا أعرفنك إن جدَّت عداوتنا والْتُمِسَ النصرُ منكم عَوضُ تُحْتملُ [١]

والنهي متوجه للمخاطب في صورة الغائب، فالمعنى : لا تفعل ما نهيتك عنه، فإنك إن فعلت ذلك عرفتُ، فكأنه يقول له : احرص على ألا أعرف .

ومنه قول ذلك القائل الذي يخاطب زوجه فينهاها في صورة نهيه لنفسه فيقول :

فلا أُنبأن أن وجهك شانه خموش وإن كان الحميم حميم [٢]

فالخطاب لزوجه ألا تشين وجهها بالأذى عند المصائب؛ لأن الأمر سيبلغه فهو ينهى نفسه أن يصله نبأ كهذا، ولن يبلغه النبأ إلا إذا فعلت المنهي عنه، فأجدر بها ألا تفعل.

ومن الشعر الإسلامي قول الوليد بن عقبة(ت:٦١هـ):

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد لها أبدا ما دام فيها الجراضم[٣].

فالشاعر يتوجه إلى نفسه بالنهي أن يعود إلى دمشق مرة أخرى، والمعنى : لا تكن منا عودة إذا ما خرجنا .

ومنه قوله: لا أعرفنك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي[٤].

أي لا تكن كذلك، ولا تفعل هذا فأعرِفُكَ به وفاعلا له على مذهب النهي والتحذير له من ذلك، ومن أن يعرف بهذه الصفة، والنهي على الحقيقة نهيٌ عن المعروف الذي هو الفعل لا عن المعرفة التي هي فعل المعلوم أو صفته، وكذلك إذا قال القائل: لا

---

(١)ديوان الأعشى ص ١١١ يقول : لا أعرفنك إن التمس النصر منك ، واحتملت القوم الحمية فغضبوا ، لا أعرفنك وقتئذ تذهب وتخلي قومك .انظر : شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٣٠٣.

(٢)البيت لعبد قيس بن خفاف البرجمي في إيضاح شواهد الإيضاح ١٣٧، والشاعر يخاطب زوجه وينهاها عن الجزع عند المصيبة وإن كانت بفقد حميم .

(٣)البيت منسوب للفرزدق في أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٣ ، وليس في ديوانه ، ومنسوب للوليد بن عقبة يعرض فيه بمعاوية ، والجراضم عظيم البطن .

(٤)ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٦.

أرينك ها هنا ولا أسمع لك كلمة، فإنما هي نهي عن الكون المرئي والكلام المسموع المتعلقَين بقدرة المكلف الموجود، وليسا بنهي عن رؤية الزاجر المتلوي وسمعه، لأن ذلك ليس من مقدورات المخاطب الموجود [١].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك)[٢].

قال ابن حجر:" وهو وإن كان من نهي المرء نفسه فليس المراد ظاهره، وإنما المراد نهي من يخاطبه عن ذلك، وهو أبلغ "[٣].

ومنه قوله: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)[٤]. وما إلى ذلك من أحاديث ؛ منها:(لا يطلبنكم الله) (ولا يأكل طعامك إلا تقي)(لا يبقين باب)...

في كلام السابقين

يعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) أول من رصد هذا التحول في النهي، وقد استشهد له بالبيت السابق : فقلت له صوب، ثم قال : " فهذا على النهي، كما قال : لا تمددها فتشققها، كأنه قال : لا تجهدنه ولا يدنيك من أخرى القطاة ولا تزلقن، ومثله من النهي : لا يرينك ههنا، ولا أرينك ههنا "[٥].

---

(١)انظر: الانتصار للقرآن للباقلاني ٢/ ٦٠٨.

(٢)صحيح البخاري كتاب (الجهاد والسير) باب (الغلول)برقم/ ٣٠٧٣وصحيح مسلم كتاب (الإمارة) باب (غلظ تحريم الغلول) رقم ١٨٣١ عن أبي هريرة.

(٣)فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٨٦.

(٤)سنن الترمذي كاب(أبواب العلم) برقم/ ٢٦٦٣ عن أبي رافع وقال: هذا حديث حسن.

(٥)الكتاب لسيبويه ٣/ ١٠١ .

فلفظ " فيدنك" معطوف على " لا تجهدنه" المجزوم بلا الناهية وقد تحول فيه النهي

وذكره الزجاج (ت ٣١١هـ) في تأويل أكثر من آية، منها قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة / ١٣٢]، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النمل / ١٨] .قال:"فلفظ النهي لسليمان، ومعناه للنمل، كما تقول : لا أرينك ههنا، فلفظ النهى لنفسك ومعناه : لا تكونن ههنا فإني أراك "[١].

وتحدث عَصْرِيُّ الزجاج : الإمام أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) في تقسيمات الفعل ومن أضرُبها " أفعال منقولة يراد بها غير الفاعل الذي جعلت له، نحو قولك : لا أرينك ها هنا، فالنهى إنما هو للمتكلم كأنه ينهى نفسه في اللفظ وهو للمخاطب في المعنى، وتأويله : لا تكونن ههنا؛ فإن من حضرني رأيته" [٢].

وأشار إليه ابن النحاس (ت ٣٨٨هـ) والباقلاني (ت:٤٠٣هـ) ومكي بن أبى طالب (٤٣٧هـ) وغيرهم[٣].

ونجد ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) قد ذكره باسم النهى المحوَّل [٤]، ونقله بعده غيره، وانطباق الاسم على الأسلوب ظاهر.

---

(١)معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٤١٠ .

(٢)الأصول في النحو لابن السراج ١/ ٧٤ .

(٣)انظر:إعراب القرآن للنحاس١/ ٢٨٤ ،والانتصار للقرآن ٢/ ٦٠٨ ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢١٨ .

(٤)المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٥١٥ ، وهو بهذا الاسم عند أبي حيان في البحر ، وعند المرادي في شرحه=

المبحث الثاني : أقسام النهي المحول وأسراره

بالنظر في توجيه الخطاب إلى غائب ومخاطب ومتكلم، وباستقراء الشواهد الواردة يمكننا تقسيم النهي المحول بحسب صوره إلي قسمين :

١ – أن يتوجه النهي للمتكلم ويقصد المخاطب :

وقد سبق بيان أمثلة ذلك من الشعر العربي، ومنه القول السائر : لا أرينك هاهنا، فهو نهيٌ عن الإتيان للمكان، وهذا الإتيان سبب لأن يراه المتكلم، فعدل المتكلم عن السبب وهو الإتيان إلى المسبب وهو الرؤية، ففيه مجاز . ونحوه: لا أعرفنك تفعل كذا.

وهذا النوع ليس له مثال قرآني، فلم يرد نهيٌ موجه من رب العزة والجلال إلى ذاته الشريفة العلية . بيد أنه ورد في أحاديث نبوية وقد سبق ذكر بعضها قريبا.

٢ – أن يتوجه النهي للغائب ويقصد المخاطب :

وأمثلته كثيرة، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾[القلم : ٢٣، ٢٤] فهم يتوجهون بالنهي إلى المسكين، وهو ليس معهم، فهم يقصدون أنفسهم بهذا النهي، فكأنهم يتوجهون بالنهي إلى جهتين : أولهما ذلك المسكين الجالس ينظر رفدهم، فلا يريدون أن يروه داخلا عليهم، وهذه صورة النهي، أما حقيقته فإنهم ينهون أنفسهم عن إتاحة الفرصة للمسكين أن يدخل عليهم فينتفع مما أفاء الله عليهم، وفى هذا دليل على شدة الحرص والتيقظ التام لإتمام جريمتهم النكراء في حق الفقراء .

بلاغة الأسلوب

للعرب أساليب بليغة في تحويل الكلام، وفى النهي المحوَّل يقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : " وكلام العرب كثير الانحرافات، ولطيف المقاصد والجهات، وأعذب ما فيه : تلفته وتثنيه " [١].

= على الألفية الموسوم ب توضيح المقاصد ٣/ ١١٧٧ ، وشرح الأشموني علي الألفية ٣/ ١٢٠ .

[١] المحتسب لابن جني ٢/ ٨٦ .

فالنهي المحول لون من ألوان تلوين الخطاب، وهو - في موضعه – أبلغ من النهي الصريح ؛ " لأنه جمع في النهي بين إيقاعه على المتكلم من طريق الصريح، وعلى المخاطب من طريق الكناية والمعنى واللزوم " [١].

وفى تحويل النهي لون من الإيجاز بالحذف، فقولك : (لا أرينك هاهنا) معناه : لا تكن ههنا، فإن من كان ههنا رأيته، ولكن الكلام – كما قال الزجاج (ت ٣١١هـ) قصد به إلى الإيجاز والاختصار[٢]، وهو من " سعة الكلام ".

وهو لون من ألوان المجاز، يُكتفى فيه بذكر المسبب عن ذكر السبب إذ هو من لوازمه، فالنهي عن المسبَّب نهيٌ عن السبب أيضا . قال ابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ) : " فكان ذكر المسبب دليلا على السبب، وهذا من أظرف ما يرد في بابه فاعرفه"[٣] ،وعده الطيبي (ت ٧٤٣هـ) من الكناية الإيمائية [٤]

فمن قال بالمجاز نظر إلى استعمال اللفظ الموضوع للغائب في خطاب المتكلم، ومن قال بالكناية نظر إلى استعمال اللفظ في معناه ثم انتقل إلى الملزوم .

---

(١)الشافي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير ٥/ ٥٥٠ .

(٢)معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٢٩ .

(٣)الجامع الكبير ص١٢٥.

(٤)الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ٢/ ٦٢٩ ، والإيماء قسم من أقسام الكناية باعتبار الوسائط أو اللزوم ، قال السكاكي : " ثم إن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح وإيماء وإشارة" مفتاح العلوم ص ٤٠٣ . والكناية الإيمائية هي كناية قلت وسائطها بلا خفاء ، ومثالها قول البحتري:

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول.

فأثبت المجد للخيام، وهو إثباتٌ للمجد لآل طلحة، واللزوم واضح بين الأمرين؛ فهما محسوسان ظاهران . وانظر : الطراز ليحيى العلوي ١/ ٩٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾[الأعراف:١٠٥] كما أن الحق لازم له فهو لازم لقول الحق أيضا ، واللزوم ظاهر .انظر : حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٢٠٠

وهى كناية عن نسبة ، والإشارة بها إلي المطلوب قريبة لا خفاء فيها .

المبحث الثالث: مواقع النهي المحول وأسراره في القرآن الكريم

أولا: التمسك بالإسلام إلى الممات.

قال تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[البقرة ١٣٢].

بينت الآيات السابقة أن السفيه هو من يرغب عن ملة إبراهيم، وقد وصى بهذه الملة إبراهيم بنيه ويعقوب كذلك؛ فقال كل منهما[١]: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾.

وقد توجه حرف النهى (لا) إلى الموت، وليس في مُكْنَتِهم أن ينتهوا عن الموت، ولا يمكن أيضا أن يتوجه النهي إلى الموت، وإنما هذا -كما قال الزجاج (ت ٣١١هـ) -: " هذا على سعة الكلام ... والمعنى في الآية : الزموا الإسلام، فإذا أدرككم الموت صادفكم مسلمين "[٢].

وشرح ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) سر التحول في الأسلوب فقال : " ولما كان الموت هو غاية هذا المطلوب أُخِذ فعله، وصُيِّر كأنه المنهيُّ عنه تنبيها على أن المقصود دوام ذلك إليه، فهو من باب النهي عن المسبب والمراد السبب؛ لأن مفارقته للإسلام سببٌ لموته على غيره،

ولما كان المقصود ذلك المسبب على تلك الحال جعِل الفعل المنهي عنه تنبيها على هذا المقصود "[٣].وسر إيقاع النهي على الفعل إظهار أن موتهم على غير حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت ألا يحل

---

(١)وفى الآية وجه لطيف من مسائل علم المعاني وهو حذف فعل القول ، فإذا وردت جملة مقولة بعد ما فيه معنى القول دون حروفه " ووصى" فإن البصريين يخرجونها على حذف القول ، قال ابن مالك في شرح التسهيل ٣/ ٩٦ : وهو الصحيح ، وهذا من باب حذف المسند ، وفيه إيجاز ، وإثارة الخيال في تقدير المحذوف ، وفيه سرعة إبراز الوصية والاهتمام بشأنها.

(٢)معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٢١٢ .

(٣)أمالي ابن الحاجب ١/ ١٧٩ .

فيهم وهذا أمر بالثبات على الإسلام من أبلغ وجه، ففيه تحويل النهي، وفيه لازم آخر، فمعنى (لا تموتن): لا يكن موتكم [١]،والنهي عن الكون أبلغ من النهي المباشر، لأن أمر الثبات على الدين مما يستحق التشديد في الوصاة به، وكان من دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم : (يا ولى الإسلام وأهله، ثبتني به حتى ألقاك)[٢].

ومن دعاء الصالحين في الذكر الحكيم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[آل عمران ٨] قرأ بعضهم : ربنا لا يَزِغ قلوبُنا [٣].

توجه بالنهي إلى القلوب بألا تزيغ، والمعنى : إن أزغتنا يا رب بعد الهداية زاغت قلوبنا؛ فأوقع النهي إلى مآل الأمر ولازمه وأراد مبدأه وملزومه، فإن القلب محل للواردات وينطبع فيه الهداية والضلال، فإنه إذا أزاغه الله زاغ، فالدعاء – على هذه القراءة – يضيف هذا المعنى الاعتقادي ويبين أثر الإزاغة.

ثانيا: الموقف من المشركين.

ابتلى الله بعض خلقه ببعض، فابتلى المؤمنين بالكافرين، وكان من حكمته بقاء سنة المدافعة بين الحق والباطل لتتفاوت الدرجات وما إلى ذلك .

وفي القرآن الكريم خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم [٤]فيه التعليم والتوجيه لكيفية التعامل مع الكفار؛ فقد كان يضيق صدره بما يقولون، فأنزل الله عليه قوله :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٢] .

---

(١)انظر : حاشية الطيبي على الكشاف ٣/ ١٠١.

(٢)الطبراني في الأوسط ١٠/ ٢٠٦ ، والضياء في المختارة ٦/ ٢٧٠ عن أنس مرفوعا ورجاله ثقات . مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٧٦ .

(٣)قرأ بها السلمي . مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ص ١٩ .

(٤)وخطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته ما لم يرد مخصص ، على الراجح من أقوال الأصوليين . انظر : الإحكام للآمدي ٢/ ٢٧٩، والمستصفى للغزالي ١/ ٢٣٨.

وفي الآية الكريمة تذكير من الله لنبيه بنعمة إنزال الكتاب عليه، ونهيٌ ألا يوجد في صدره أي ضيق من إنذار الكافرين وتذكير المؤمنين. والنهي في صورته إلى الحرج، وفي حقيقته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو القاسم النيسابوري (ت:٥٥٣هـ): "نهي عن التعرض للحرج،وفيه من البلاغة أن الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك،فانته أنت عنه بترك التعرض له"(١).

وفيه مع المبالغة في النهي مزيد تكريم، قال البقاعي(ت:٨٨٥هـ): "والنهي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حُوّل إلى الحرج مبالغة وأدباً"(٢).

وهو صلى الله عليه وسلم بشر، له عواطف وانفعالات ينتابه الأسى والحزن لمسارعة الكفار في كفرهم، فينزل عليه قول الحق ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[آل عمران / ١٧٦] فالنهي متوجه في لفظه إلى المنافقين المسارعين في الكفر وإلى إخوانهم من المشركين وأهل الكتاب، وهو – في حقيقته – نهيٌ عن أن يعرِّض نفسَه للحزن الشديد أو لخوف المضرَّة منهم، قال أبو السعود (ت/ ٩٨٢هـ) : " وتوجيه النهيِ إلى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة في ذلك ؛ لما أن النهى عن التأثير نهيٌ عن التأثر بأصله ونفيٌ له بالمرة " (٣).

فهذا قطع لأصل الحزن حتى لا يبقى في نفسه منه أي أثر، ونحو هذا قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[المائدة / ٤١] .

---

(١)إيجاز البيان عن معاني القرآن لنجم الدين النيسابوري ١/ ٣١٩.

(٢)نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٣٤٩.

(٣)إرشاد العقل السليم ٢/ ١١٦ .

وقد يكون الحزن بسبب كفرهم، فيبين المولى تبارك وتعالى لنبيه ألا يحزن على كفرهم، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ ﴾[لقمان: ٢٣] فأسند النهي إلى كفرهم ألا يحزن قلب النبي، وقد يكون الحزن بسبب أقوالهم، فتأتي الآيات ناهية عن الحزن من أبلغ وجه؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٦٥]. وقولهم صيغة عموم تشمل طعنهم في الرب العظيم وفي كلامه المقدس وفي شخص رسوله الكريم .

ومن الباب: قوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[الحج:٦٧]. والآية تبين أن لكل أمة شريعة، وقد نسخت شريعتك ما سبقها، فلا تجعل هؤلاء ينازعونك في أمرك وامض في طريقك غير عابئ بهم، فإنك على طريق الحق المبين.

وهل النهي هنا على ظاهره للمشركين؟

ذهب جماعة إلى ذلك واستظهره الألوسي (ت١٢٧٠هـ)(١)، والذي يظهر في الآية والله أعلم أنها من قبيل النهي المحول، وأن النهي وإن ورد موجَّها للمشركين فهو في الحقيقة للرسول الأكرم أن يعطيهم أي مدخل أو سبب لينازعوه به؛ أي لا تجعل لهم أي مدخل للمجادلة والمنازعة، قال ابن جني (ت:٣٩٢هـ): " أي: فاثبت عل يقينك في صحة دينك ولا تلتفت إلى فساد أقوالهم، حتى إذا رأوك كذلك أمسكوا عنك ولم ينازعوك، فلفظ النهي لهم ومعناه له، صلى الله عليه وسلم "(٢).

والآية التي بعدها تشير إلى هذا؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[الحج:٦٨].

ومن هذا الباب أيضا : النهي عن الاغترار بما هم عليه من يُسر دنيوي، قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾[آل عمران: ١٩٦] والمقصود بتقلبهم حركتهم في الأرض للتجارة وللكسب، فالنهي عن التقلب في ظاهره، وفي حقيقته نهيٌ عن الاغترار بالتقلب، قال الزمخشري(ت:٥٣٨هـ): "وقد جعل النهي في

(١) روح المعاني للألوسي ٩/ ١٨٥.

(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ٢/ ٨٦.

الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب،لأنّ التقلب لو غرّه لاغتر به، فمنع السبب ليمتنع المسبب"[1].

ومنه: النهي عن الصد عن آيات الله وعن آخرته؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[طه:١٥، ١٦] . إن أمر الساعة عظيم، والمنكرون للقيامة لا يكتفون بصد أنفسهم بل يصدون غيرهم عن الساعة، فجاء النهي في الآية على أسلوب عجيب؛ إذ نهى من لم يؤمن عن صدِّ موسى، فكيف ينهى الكافر عن صدِّ المؤمنين عن الساعة، وهل يتوجه إليه النهي؟

للنهى بهذه الصورة وجهان: إما لأن الصد من الكافر سبب للتكذيب، فنهى عن الصد وهو السبب، وأريد المسبب وهو نهي موسى عن التكذيب، أما الوجه الثاني فيجليه الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) بقوله:" أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته، فذكر المسبب ليدل على السبب...فكان ذكر المسبب دليلا على السبب، كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة، صليب المعجم؛ حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه"[2]. فعلى هذا يكون في النهي هنا وجه حسنٌ؛ فهو ينهى موسى عن التأثر بالكافر من وجه لطيف؛ إذ لو كان فيه شيء من عدم الصلابة في الأمر لتأثر بما يثيره الكافر، وهذا التأثرُ سبب النهي، فذكر المسبَّب وهو التأثر ليدل على السبب وهو الرخاوة في الدين، فيكون المعنى: كن قويا في أمرك حتى لا يصدك صادٌّ عن الحق الذي معك.

ونحوه قوله تعالى مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾[القصص: ٨٧].

وأعباء المواجهة ولا شك طويلة، وطريق الدعوة مفروش بالأشواك، ولن ينتهي الكيد المجنون، فتأتي آيات القرآن بالوصاة بالصبر؛ ربطا على القلوب، وإيناسا للنفوس، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٤٥٨. فالسبب: تقلبهم في البلاد، والمسبب: الاغترار ، فنهى عن التقلب لينتهي عن الغرور، فيكون المعنى: لا تغتر بسبب تقلبهم في النعيم، فهو إلى اضمحلال وزوال.

(٢) السابق ٣/ ٥٧.

﴾[الروم: ٦٠] فالنصر آت، حقا وصدقا، ولن يخلف الله وعده، فلا يحملنك هؤلاء على الخفة والجهل، والنهي في الظاهر للذين لا يوقنون، وفي الأصل نهيٌ للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتأثر باستخفافهم، فهم أضعف وأجبن من أن يفتوا في عضد أهل الإيمان واليقين، قال أبو السعود(ت:٩٨٢هـ): " فظاهرُ النظمِ الكريم وإنْ كانِ نهياً للكفرة عن استخفافِه صلى الله عليه وسلم واستحقاقه، لكنه فَي الحقيقة نهيٌ له صلى الله عليه وسلم عن التَّأثر من استخفافِهم والافتتان بفتنتِهم على طريقِ الكناية"(١).فالنهي عن أن يفعل معهم ما يطمعهم فيظنوا ظنا أنه يميل إليهم وحاشاه، قال البقاعي: " وما أفاد هذا إلا تحويل النهي،ولو قيل: لا تخفن معهم، لم يفد ذلك"(٢).

ومع كل هذه الأقوال التي تصيب بالحزن وتؤثر في النفس، ومع هذا التقلب في الأرض شرقا وغربا والاستطالة بالبغي والصد عن سبيل الله والدار الآخرة فإن القرآن يوصي أهله ألا يدفعهم بغضهم للقوم -بسبب أفعالهم – إلى الظلم، فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة: ٨] إنها العدالة المطلقة التي لم ولن توجد إلا في ظلال الإسلام الوارفة، فالآية تأمر المؤمنين بالقيام بالقسط مع المخالفين في الدين، وألا يحملنهم البغض على عدم العدل، فالعدل هو التقوى، وقد ورد النهي في الآية موجها للشنآن وهو البغض، وفي حقيقته يتوجه للمخاطبين من المؤمنين؛ فلا ينبغي أن يؤثر فيهم البغض فيدفعهم إلى عدم العدل، وهذا ولا شك أبلغ من النهي عن الظلم مباشرة، فكأن الشنآن هو الدافع للظلم، فيتوجه النهي إليه: يا أيها البغض، وجودك في قلب المؤمنين تجاه الكفار المعتدين دليل على حياة القلوب وصِحَّتها، لكن لا تحملنهم على الظلم أو الاعتداء، فالعدل مع الكافر والمؤمن؛ لأنه قيمة مطلقة لا تختص بجنس أو نوع أو دين أو عرق.

ومن القراءات الواردة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٦٧.
(٢) نظم الدرر ١٥/ ١٣٨.

﴿يَرْجُونَ﴾[النساء: ١٠٤] فقد قرأها عبيد بن عمير(ت: ٧٤هـ): ولا تُهانوا[١] . ومعنى قراءة الجمهور: لا تجبنوا ولا تضعفوا في طلب القوم، والنهي هنا للمؤمنين، أما على قراءة عبيد فيكون النهي متوجها إلى الإهانة ؛ أي: لا يقع منكم ما يترتب عليه إهانتكم؛ وذلك بأن تجبنوا عن اللقاء أو تجنوا على العدو بما لا يستحق فتحصل لكم الإهانة. وهو معنى طيب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣]. قرأ ابن أبي عبلة(ت١٥١هـ) وأبو حيوة(ت٢٠٣هـ) (ولا تُركنوا) بضم التاء[٢]، فالاستقامة تقتضي من المؤمنين ألا يركنوا وألا يطغوا، والركون إلى الظالمين يعنى مظاهرتهم والرضا بعملهم وجعلهم ركنا يعتمد عليه[٣].وقراءة (تُركنوا) من أركن المتعدي بمعنى أمال، والنهي متوجه للركون والمعنى: لا تفعلوا ما يؤدى بكم إلى الركون، ويكون ذلك بفعل مقدمات الأمر التي توصل إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه، فالنهي على هذا نهيٌ عن الأسباب والمقدمات التي توقع في الركون بعد ذلك.

وبالنظر المتأمل في هذه الآيات المباركات يتضح لنا بعض أسرار إيثار تحويل النهي فيها؛ فالنهي عن الحزن بهذا الأسلوب يَشي بأن أمر هؤلاء أهونُ من أن يجعل في القلب حزنا يستحق أن يُنهى عنه، ويحمل النهي بهذه الطريقة معنى التسلية، و البشارة بالنصر والتمكين، وفيه التهييج والإلهاب الذي يحث النفس على الترك من طرفٍ خفي، وفي النهي عن تقلبهم إشارة إلى الرب الكريم إنما يرزقهم من عطاء الربوبية لا عن استحقاق أو نحوه، وفي توجيه النهي إلى مسارعتهم في الكفر وإلى كفرهم ومنازعتهم دليل واضح على أنها من الأمور المبغوضة عند الله، وفي تحول النهي إلى المؤمنين في هذه الآيات تنبيهٌ لهم ألا يطاوعوا أفعال القوم؛ فالمطاوعة أو ردُّ الفعل تجعل لفعل الكفار أثرا في نفوس المؤمنين؛ فأخلق بأهل الإيمان ألا ينجرفوا إلى ردِّ فعل على أمر لا قيمة له ولا أثر عند الله.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٥٤.

(٢) مختصر شواذ القراءات لابن خالويه ص٦١.

(٣) حقق العلامة رشيد معنى الركون هنا تحقيقا وافيا في المنار(١٢/ ١٤٠ وما بعدها) فليراجع.

ثالثا: وصايا قرآنية عامة

تعرضنا في الصفحات السابقة للحديث عن الموقف من العدو الخارجي، وسنعرض الآن لما ورد في هذا الأسلوب من آيات تتحدث عن صنف آخر من الأعداء الذين يصدون عن سبيل الله ويغرون المؤمنين ويفتنوهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾[الأعراف: ٢٧] والنداء في الآية لتذكير البشر بما حدث مع أبيهم آدم، فيحذرهم من فتنة الشيطان ومن كيده ووسوسته، وجاء النهي عن الفتنة موجها للشيطان في اللفظ، والمعني: يا بني آدم، لا تتركوا أنفسكم وخواطركم نهباً للشيطان، فيتمكن بذلك من بسط سلطانه عليكم فيخدعكم ويفتنكم ويزعجكم إلى المعاصي إزعاجا. فالنهي للتحذير، وهو في هذا الموضع من مبالغة النهي كما يقول ابن عاشور (ت:١٣٩٣هـ)(١)، ويقول البقاعي(ت:٨٨٥هـ): " كان نهي الشيطان عن فتنتنا إنما هو في الحقيقة نهيٌ لنا عن الافتتان به، فهو في قوة: ليشتد حذركم من فتنته فإنه دقيق الكيد بعيد الغور بديع المخاتلة"(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[الزخرف:٦٢] وفيها –كما في سابقتها– توجيه النهي إلى اللعين أن يصد المؤمنين، قال الشوكاني(ت١٢٥٠هـ) في تفسيرها:" أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي"(٣).أي أن الاغترار بالوساوس الشيطانية يُمكِّن الشيطان من الإيقاع بابن آدم في حبائله فيحصل له الصدُّ عن سبيل الله، فالذي يعصم من التأثر بالصدَّ إنما هو تقوية واعظ الإيمان في النفوس فلا تتأثر بكيد الشيطان وصدِّه.

ولا يقتصر الإلهاء والإغواء على إبليس وحده، بل إن الدنيا تغر وتخدع الكثرة الكاثرة من بني آدم؛ لذا جاء النهي القرآني للناس جميعا في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٧٧

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٧/ ٣٨٢.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٦٤٣.

﴾[لقمان:٣٣] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[فاطر:٥] . وفي الآيتين تأكيدٌ على أن وعد الله بالثواب والعقاب حق لا ريب فيه، فلا تجعلوا ما يتزين في أعينكم من الدنيا خادعا لكم عن الدار الآخرة وما فيها، ثم أعاد الفعل في النهى عن أن يغرَّ الشيطان الناس. والدينا بما فيها وما عليها لا تغرُّ الناس، وليست هي مما يُنهى على الحقيقة، لكنها سبب في الغرور بما يبدو من زهرتها وزينتها فيتلهى المغرورون بها فتكون هي السبب في غرورهم، لذا أوقع النهي عليها هنا من باب النهي عن السبب وإرادة المسبب. فأنزلت الآية سبب الغرور منزلة من يغرُّ فوجهتْ إليه النهي حتى لا تكون زينة الدنيا سببا في غرور العبد ونسيانه وعد الحق.

ومن صور الإلهاء الدنيوي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[المنافقون: ٩] والمال والبنون أكثر ما تشرئب إليه أعناق أهل الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الكهف:٤٦] ولذا ورد النهي عن الانشغال بهما في صورة قوية مؤثرة؛ إذ توجه النهي للمال والولد أن يُلهيا المؤمنين عن ذكر الله، ويشرح الألوسي (ت:١٢٧٠هـ) سر تحول النهي هنا فيقول: "والمراد بنهي الأموال وما بعدها نهي المخاطبين، وإنما وجه إليها للمبالغة؛ لأنها لقوة تسبِّبها للهو وشدة مدخليتها فيه جُعلَت كأنها لاهية،وقد نُهيت عن اللهو، فالأصل: لا تلهوا بأموالكم إلخ، فالتجوز في الإسناد،وقيل: إنه تجوز بالسبب عن المسبب[1].

والآيات السابقة في التحذير من فتنة الرجل في دينه، أما الفتن العامة التي تموج وتسحق من استشرفها وافتتن بها فقد جاء النهي عنها في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥] وللعلماء في (لا) هنا أكثر من تأويل؛ فذهب جماعة إلى أنها نافية، أما الأخفش (ت٢١٥هـ) فذهب إلى أنها ناهية فقال: "نهيٌ بعد أمر"[1]. والمعنى: أن

(١) روح المعاني للألوسي ١٤/ ٣١١، ٣١٢.

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٣٤٧. وقال بذلك المبرد والفراء والزجاج. وانظر:معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٤١٠. مغني اللبيب لابن هشام ٣/ ٣٢٣.

الله أمر المؤمنين بقوله: واتقوا فتنة، وتم الكلام بعدها ثم توجه النهي للفتنة بقول: لا تصيبن الذين ظلموا، والأصل أن يكون النهي لمن تعرض للفتنة لكنه تحول من نهيهم عن التعرض للفتنة إلى نهي الفتنة عن إصابة الظالمين خاصة.

قال ابن الحاجب(ت:٦٤٦هـ):"والنهي في الظاهر للفتنة، والمعنى نهي المعترضين لها، والفعل للإصابة، والمعنى التعرض للإصابة. وقد يعدل الناهي عن الشيء لمسببه، لأنه هو المقصود بالنهي، وإذا انتقل إلى المسبب أسنده إلى ما هو فاعل له...فكأنه قال: لا تتعرضوا للفتنة التي يصيب المتعرضين بلاؤها، فعدل عن التعرض الذي هو سبب إلى الإصابة التي هي مسبب "[٢].

وذهب كثيرون إلى أن التأويل على هذا يقتضى أن تصيب الفتنة الظالمين خاصة؛ لأن مفعول الإصابة هو فاعل التعرض[٣]. ويجوز أن تشمل الإصابة غيرهم، وللرازي(ت: ٦٠٦هـ) تأويل لطيف في توجيه النهي للفتنة هنا حيث قال: " جيء بصيغة النهي مبالغة في نفي اختصاص الفتنة بالظالمين كأن الفتنة نهيت عن ذلك الاختصاص. وقيل لها لا تصيبي الذين ظلموا خاصة، والمراد منه: المبالغة في عدم الاختصاص على سبيل الاستعارة"[٤].

وهذه الآية الكريمة تفيد أن كل مسلم عليه واجب في النصيحة حتى لا تصيبه الفتنة، وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة:١٠٥] وليس في الآية ما يفيد التملص من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل هي آكد في الأمر بمراعاتهما؛ فكيف يهتدي المرء وهو مقصرٌ في واجب؟! على أن سوء الفهم كان قديما، وشاهد هذا قول أبي بكر الصديق في الآية: " يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ

(٢) أمالي ابن الحاجب ١/ ١٢٥.

(٣) انظر: حاشية الصبان على الأشموني ٢/ ٣٢٣.

(٤)مفاتيح الغيب للرازي ١٥/ ٤٧٤.

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه"(١).

وفي تأويل: (لا يضركم) أكثرُ من وجهٍ نحوي؛ منها: الجزم على النهي، وعلى هذا فيكون النهيُ:"نهيا للضُّلَّال عن إيصال الضرر إلى المؤمنين"(٢). فتحويل النهي يفيد عدة معانٍ؛ منها: أنكم إن تركتم أهل الضلال وما هم عليه ضرُّوكم وفتنوكم وخرقوا سفينة النجاة للمجتمع ليغرق الكل في تيه المنكر والضلال، فلا يضركم أهل الضلال بضلالهم، بل انفعوهم ما استطعتم إلى ذلك سبيلا فهو أقوم قيلا.

وفي نهي المبطلين عن إيقاع الضرر بالمؤمنين توجيه خفي لهم إلى الإنابة والرجوع إلى ربهم، وتوجيهٌ للمؤمنين ألا يعدوا ضلال هؤلاء ضررا؛ قال الطبرسي (ت:٥٤٨هـ):" وهذا النهي بلفظ غائب يراد به المخاطبون إذا قلت: لا يضرُرك كفر فلان، فمعناه: لا تعدنَّ أنت كفرَه ضررا"(٣). فما عليك إلا أن تغرس الفسيلة بالدعوة على بصيرة، وليس عليك النتائج بعد ذلك فلن تضارَّ بضلالهم.

---

(١)مسند أحمد ١/ ١٧٨ وهو أول حديث في هذا المسند المبارك، ورواياته متعددة وسنده صحيح.

(٢)حاشية الطيبي على الكشاف ٥/ ٥١٤.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٣/ ٣٥٦.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة مع هذه الآيات الكريمات المباركات يمكننا الآن القول بأن النهي المحول أسلوب قرآني ورد في آيات متعددة، وهو مجاز عقلي، ويعد عن بعض البلاغيين لونا من ألوان الكناية، وفيه الجمع بين نهيين: نهي ظاهر ونهي مقدَّر، وهو من أبلغ صيغ النهي، ويضفي على النهي معاني أخري تُسْتشفُّ من سياق كل آية، وقد تعرضنا لبعضها في عجالة، ورأينا كيف يخاطب القرآن العواطف والانفعالات وينهاها أن تتحكم في سلوكيات المؤمنين الصادقين، فلا يدفعنهم البغض إلى الظلم، ولا يؤيسنهم حرج الصدر من البيان والإنذار، وهكذا..

وفي هذا الأسلوب أيضا يتوجه النهي إلى الكافرين وإلى المسارعين في الكفر منهم، وإلى كفرهم وأقوالهم وتقلبهم، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الأمور مما تستحق أن يُنهى عنها أصالة، ولما يستتبعها من أثر في نفوس عباد الله المتقين.

وفي هذا الأسلوب اللطيف العجيب تشخيصٌ للمعاني والعواطف والأقوال وإنزالها منزلة من يتوجه إليه الخطاب مبالغةً في النهي، وتلوينا في الخطاب، وإثارةً للمشاعر فسبحان من كان هذا كلامه.

وفي الختام أسأل ربنا جلت حكمته النفع والقبول وبالله التوفيق.

المراجع والمصادر

*إرشاد العقل السليم. لأبي السعود. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د.ت.
*الأصول في النحو لابن السراج تحقيق الفتلي، مؤسسة الرسالة. بيروت.
*إعراب القرآن للنحاس، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ
*أمالي ابن الحاجب دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة،دار عمار، ١٤٠٩هـ.
*أمالي ابن الشجري، تحقيق د/ محمود الطناحي،مكتبة الخانجي،القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ = ١٩٩١ م.
*الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق د محمد عصام القضاة، دار الفتح عمان، الأولى ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
*إيجاز البيان عن معاني القرآن لأبي القاسم النيسابوري، تحقيق الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي.بيروت،الطبعة الأولى : ١٤١٥ هـ.
*إيضاح شواهد الإيضاح، أبوعلي القيسي،تحقيق د/ محمد الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.
*البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
*التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤ هـ
*الجامع الكبير،ضياء الدين ابن الأثير،تحقيق:مصطفى جواد،المجمع العلمي ١٣٧٥
*حاشية الشهاب على البيضاوي طبعة دار صادر بيروت.
*حاشية الصبان على شرح الأشموني للألفية، دار الكتب العلمية ٤١٧هـ=١٩٩٧
*حاشية الطيبي على الكشاف، تحقيق لجنة من العلماء بإشراف د محمد عبد الرحيم، طبع جائزة دبي، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.
*ديوان الأعشى، شرح وتعليق د/ محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
*ديوان امريء القيس، اعتني به: عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة، بيروت:٢٠٠٤م

*ديوان عبيد بن الأبرص،شرح أشرف أحمد،دار الكتاب العربي بيروت، الطبعةالأولى.
*ديوان النابغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.
*روح المعاني،شهاب الدين الألوسي، تحقيق/ علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥ هـ.
*الشافي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير، تحقيق: أحمد سليمان وزميله، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م
*شرح أبيات سيبويه، أبو محمد السيرافي،تحقيق:الدكتور محمد علي الريح هاشم، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٤ هـ =١٩٧٤ م.
*شرح تسهيل الفوائد،لابن مالك، تحقيق:د. عبد الرحمن السيد وزميله،دار هجر للطباعة، الأولى، ١٤١٠هـ =١٩٩٠م.
*شرح التصريح على التوضيح للأزهري، دار الكتب العلمية بيروت،الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
*شرح القصائد العشر للتبريزي،عنيت بتصحيحها:إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥٢هـ.
*صحيح البخاري، بتحقق محمد زهير الناصر، طبعة دار السلطانية الأولى١٤٢٢هـ.
*صحيح مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة فيصل الحلبي، مصر.
*الطراز، يحيى بن حمزة العلويّ،المكتبة العصرية،بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.
*فتح الباري بشرح صحيح البخاري،لابن حجر، ط.دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.
*فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير.دمشق،الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ.
*الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الطيبي، تحقيق:د. عبد الحميد هنداوي مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،الطبعة:الأولى١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
*الكتاب، سيبويه، تحقيق:عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي،القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.
*الكشاف للزمخشري،دار الكتاب العربي– بيروت، الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
*لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الثالثة،١٤١٤هـ.
*مجمع البيان، للطبرسي، دار المرتضى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.
*مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي القاهرة، ١٤١٤ هـ= ١٩٩٤ م
*المحتسب،ابن جني،وزارة الأوقاف،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٤٢٠هـ.
المحرر الوجيز،ابن عطية، تحقيق:عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية،بيروت.
*مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، مكتبة المتنبي، مصر.

*مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب،تحقيق:د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.
*معاني القرآن، الأخفش الأوسط، تحقيق:الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م
*معاني القرآن وإعرابه،أبو إسحاق الزجاج، تحقيق:عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ،بيروت،الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
*المعجم الأوسط،الطبراني،تحقيق: طارق عوض الله وزميله، دار الحرمين – القاهرة.
*مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق د/ عبد اللطيف محمد الخطيب، الطبعة الأولى الكويت ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
*مفاتيح الغيب للرازي،دار إحياء التراث العربي بيروت،الطبعة:الثالثة – ١٤٢٠هـ.
*المفردات،الراغب الأصفهاني، تحقيق:صفوان عدنان الداودي، دار القلم،دمشق.
*نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

فهرس

الموضـــــــــــــــوع	صفحة
ملخص	١٣٩
المبحث الأول: المفهوم وتطور المصطلح	١٤٠
نظرة تاريخية	١٤١
في كلام السابقين	١٤٣
المبحث الثاني : أقسامه وأسراره	١٤٥
أقسام النهي المحول	١٤٥
المبحث الثالث: مواقعه وأسراره في القرآن الكريم	١٤٧
أولا:التمسُّكُ بالإسلام إلى الممات.	١٤٧
ثانيا: الموقف من المشركين.	١٤٨
ثالثا: وصايا قرآنية عامة	١٥٤
الخاتمة	١٥٨
المراجع والمصادر	١٥٩
الفهرس	١٦٢